سلسلة روايات الشباب

4

الخضراء

سلسلة روايات الشباب 4

الخضراء

عبد الأمير عبد الله

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
طرابلس - الجماهيرية

الطبعة الأولى
1988 م.

حقوق الطبع محفوظة
للمركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
هاتف: 40705 - 45565 ـ مبرق: 20032 - 20668
ص.ب: 80984 ـ طرابلس ـ الجماهيرية

قال الابن لأبيه: غريبٌ أمر أبى الذهب هذا، إنه كما يقال، كالهرة ذو سبعة أرواح تقتل روح الاستغلال فيه فى المصنع، فتظهر فى البيـوت، يطرد من البيـوت فنسمعـه يتوعـد الناس بـالويـل والثبور وعظائم الأمور. . .

ضحك الأب وأجاب: أبو الذهب بلا روح، إنه شيطان تمتلىء نفسه بالشهوات

والنـــزوات، الاستغـلال، والـــطمـــع، والجشع، الربح والمال، السيطرة على خبز الآخرين الكذب والرياء، وستبقى روح أبى الذهب تنبض فى جسده، روح الجشع والغيرة طالما بقى المال موجوداً على الأرض. . . إنه كمن يشرب ماءً مالحاً، فكلما شرب، كلما ازداد عطشاً.

ضحك الابن وقال: الآن عرفت لماذا أطلق أجدادنا على هذا الرجل اسم أبى الذهب وعرفت الآن أيضاً لماذ سمَّـوه الغول، واستدرك الابن قائلاً: فى القصة الأخيرة أخبرتنى أن أبا الذهب توعد الناس بقـوله: لن يفلت أبنـاء الخضـراء من يدى. . . فماذا فعل؟

أجاب الأب: كان مما كان فى سالف الزمان، كانت الخضراء. . .

***

عاد صوت الطاحونة يمزق سكون الليل في الخضراء وحتى ساعات الفجر الأولى. . . كان أهالى الخضراء قد اعتادوا صوت الطاحونة فى ساعات النهار ولكنهم لم يتعودوا هذا الصوت فى الليل فى تلك الليلة لم يستطع معظم أهالى الخضراء الاستسلام للنوم إلا بعدما هدأ صوت الطاحونة.

سيَّارات محملة بالقمح والشعير تصل إلى الطاحونة، تفرغ حمولتها وتعود محملة بالطحين وأبو الذهب نفسه يشرف على العمل بهمة ونشاط. . .

تحول ليل الخضراء الساكن الهادىء إلى جعجعة وقرقعة. أهالى الخضراء هجرتهم الأحلام الجميلة الهادئة الملونة وسكنتهم الأحلام المفجعة والكوابيس. . .

ذات ليلة أفاق أحد سكان الخضراء على زوجته وهى تصرخ: أرجوك... أرجوك لا ترمه فى المطحنة... يا ناس... يا ناس ساعدونى، امنعوه من رمى طفلى فى الطاحونة، وعندما أفاقت المرأة من نومها قالت: الحمد لله، لقد كان كابوساً... سألها زوجها: لِمَ كنتِ تصرخين؟ أجابت الزوجة: رأيت فى المنام أن أبا الذهب يمسك بطفلنا الصغير من رجليه ويهم بإلقائه فى الطاحونة.

بعض أهالى الخضراء ممن عرفوا أبا الذهب بدأ يساورهم الشك فى سلوكه. قال أحدهم لجاره: لا أعرف ما هى المكيدة الجديدة التى يحيكها أبو الذهب لأهالى الخضراء. وأضاف: لا أدرى ما هو سبب عودة أبى الذهب إلى الطاحونة؟! لا بدَّ أنه

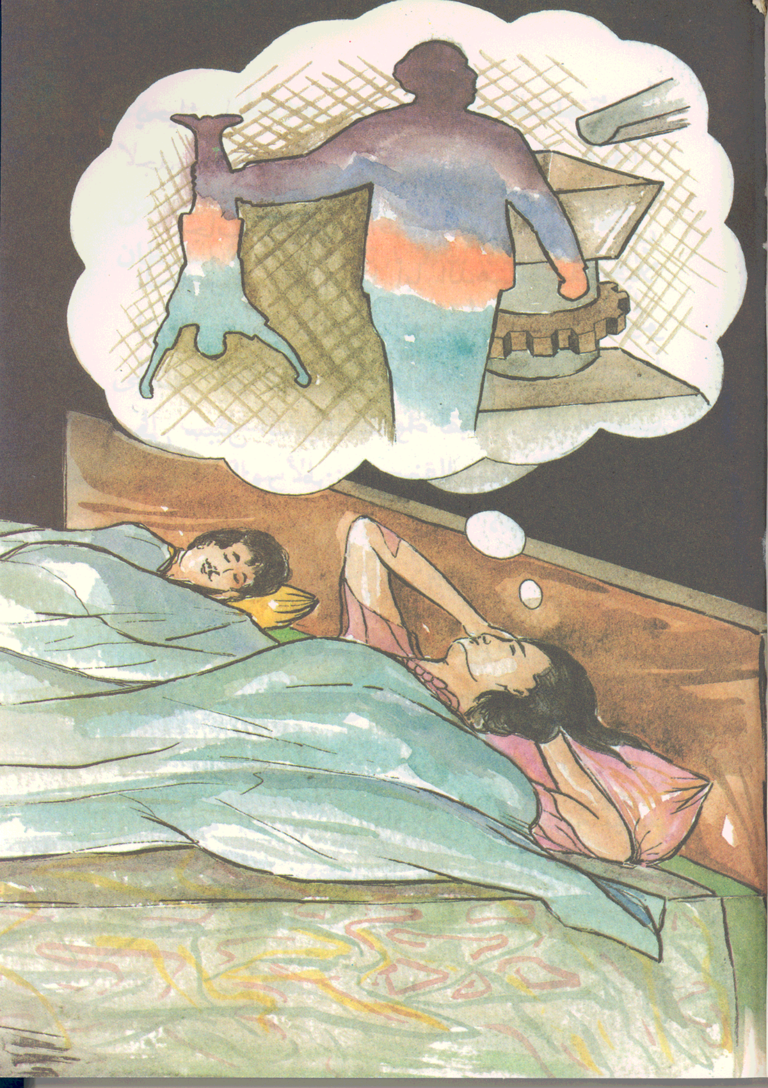

يحيك لنا مؤامرة جديدة، وينصب شركاً جديداً. . .

أجاب الجار: أصبح غريباً أمر أهالي الخضراء، فلو رأوا أبا الذهب يمد حبلاً لانقاذ غريق لقالوا: إنه يمدُّ له أفعى، ولو أضاء أبو الذهب أصابعه العشر مصابيحاً في سبيل أبناء الخضراء لقالوا: أبو الذهب أطفأ النور من عيوننا. . . ولو قدَّم أبو. . . .

قاطعه الرجل وقال: الناس على حق فيما يذهبون فيما يتعلق بسلوك أبي الذهب والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرتين. . .

ربما تاب الرجل عن ذنوبه، وأقلع عن عاداته القديمة، عاد إلى الطاحونة ليكفر عن ذلك. دعوا الرجل وشأنه. . . قال الجار هذا بتذمر وضيق.

تنهد الرجلُ ووضع يده على جبينه، أطرق لحظة وأجـاب: أبو الـذهب لا يتوب، الاستغلال فى دمه، أنا خائف من أبى الذهب، أنا لا أرتاح إلى هذا الشيطان الرجيم. . .

لم يمض وقت طويل حتى عرف أهالى الخضراء سبب عودة أبى الـذهب إلى الطاحونة، فقد القمح من الأسواق، اشتراه أبو الذهب، وحوَّله إلى طحين، وعنده فقط يوجد الطحين وبأسعار باهظة.

صحيح ما قلته يا جار: إنه شيطان رجيم. قال الرجل هذا الكلام بعدما اكتشف مكيدة أبى الذهب.

* * *

نادراً ما كان يظهر أبو الـذهب فى

شوارع الخضراء، كان يقضى معظم أوقاته متنقلاً بين الحقول، وإن حضر إلى المكتب كان يغلق باب المكتب لساعات يقضيها مع مدير أعماله مرتزق.

ذات يوم قال أبو الذهب لمرتزق: هل تعرف من هو عدونا فى الخضراء.

أجاب مرتزق: إنهم عمَّال المصنع الذين حرّضوا أخوانهم على التمرد.

ضحك أبو الذهب بخبث ورفع رأسه بعدما زمَّ شفتيه باشمئزاز وقال: انتهينا من المصنع وعمَّاله، والبيوت وساكنيها، أنا لا أهتم لعداوة شخص أو عدة أشخاص أعلم يا مرتزق، إن عدونا الحقيقى هو أهالى الخضراء مجتمعين. هذا هو العدو الذى يخيفنى أن يكون الناسُ ضدى مجتمعين،

هنـا تكمن الخطورة، أمـا أن يكرهنى الجميع كأفراد فهذا لا يهمنى.

كانت ملكية معظم الأراضى الزراعية فى الخضراء قد تحولت لأبى الذهب، اشتراها من العمَّال بعد أن احتاجوا المال لسد حاجاتهم، ومن المستأجرين الذين اضطروا لبيعها لتسديد إيجارات منازلهم، أو ليشتروا البيوت التى كانوا يسكنونها... والأراضى التى بقيت ملكاً لأبناء الخضراء لم تكن تكفى لإشباع حاجاتهم جميعاً من الحبوب والخضار والفواكه.

كان آخر بناء بناه أبو الذهب، لا يمت إلى الأبنيـة التى عـرفتهـا الخضـراء بصلة... مستودعات مخروطية الشكل، إنها مستودعات للحبوب، بعد ذلك حوَّل أبو الذهب مستخدميه فى أعمال البناء إلى

العمل فى زراعة الأرض، كما استورد حاصدات حديثة تستطيع القيام بأعمال الحصـاد والدرس وتنـوب عن عشرات العمّال.

قرر أبو الذهب زراعة جميع الأراضى التى يسيـطر عليها قمحـاً. دون غيـره من الحبوب والخضار... وكان الموسم خصباً. كانت سيقان السنابل تفوق الرجل طولاً، قبيل الحصاد فكانت الخضـراء أثناء النهار كبحيـرة من الذهب، وفى الليالى المقمرات كانت تظهر كواحة من الفضة... كانت وليمة الخصب تحمل الكثير من الإغراء والسحر، وإغراء الطبيعة وسحرها لا يقـاومان. الخصب ينـادى البشر: تعالوا إلىَّ، أنا أمّكم الأرض.

استجاب بعض شباب الخضراء لنداء

الأرض، حملوا مناجلهم وركضوا نحو الحقول يريدون الحصاد. . .

* لسنا بحاجة إلى حصَّادين، بهذه العبارة بادر أبو الذهب الشباب.

* أجاب أحدهم: نريد العمل من دون أجر، من دون أى مقابل، نريد العمل كمتطوعين، ثم انهال شاب بمنجله على رؤوس السنابل، وبدأ الحصاد.

* تقدم أبو الذهب نحو الشاب وأمسكه من كتفه وقال له: لا أريد مساعدتك ولا مساعدة غيرك، إذهب واحصد فى حقلك.

* لا أملك أرضاً أحصدها، أجاب الشاب.

* إذهب واحصد الزوابع التى رزعها

والدك بثورته فى المصنع. . . بهـذه العبارة أجاب أبو الذهب.

* قال الشاب: صحيحٌ أنك اشتريت الأرض من والدى، ولكنك لم تشتر ذكريات الناس مع أرضهم لم تشتر ذكرياتى عندما كنت طفلاً أحبو فوق تراب هذه الأرض. . . ثم التفت إلى أصدقائه وألقى منجله فوق صخرة فتطايرت شرارات من النار.

التفت مرتزق إلى سيده أبى الذهب وسأله: لماذا لم تسمح لهم بالعمل، قالوا بأنهم سيقدمون عملهم مجاناً.

ضحك أبو الذهب بخبث وقال: إسمع يا مرتزق، كان هذا الرجل يقول: إننا اشترينا الأرض ولم نشتر ذكريات الناس مع أرضهم، فلو عمل الآن فسيقول فى

المستقبل: أريد حصتى من الإنتاج، فقد قال أبوه قبله فى المصنع هذا الكلام. لا أريد تحقيق رغباتهم بلقاء ذكرياتهم، وعلى أى حال، ستبقى الأرض لى ولتبقى لهم ذكرياتهم... وستبقى أرواحهم فى يدى.... وأضاف بعدما بدا كذئب أوقع فريسته وبدأ يتهيأ لالتهامها: هل تعلم أن أرواح أبناء الخضراء، خبزهم جميعاً، النساء والرجال فى جيبى هذا.

لم يفهم مرتزق قصد أبى الذهب، فمدَّ أبو الذهب يده بخبث إلى جيبه وأخرج مفتاحاً وقال: هنا أصبح خبز أبناء الخضراء.... هنا أصبحت أرواحهم، إنها فى مخزن الحبوب والمفتاح فى جيبى...

* * *

حقول الخضراء واحة من الذهب

أرضها بحيرة من الفضة

السنابل انحنت تواضعاً لأنها ملأى

«أبو الذهب» انتفخ زهواً لأنه فارغ

قالت الفراشة هذه الزهرة لى، اغتالها أبو الذهب.

قـال العصفـور: هـذا الغصن منبـر للحرية... قطعه أبو الذهب.

قالت النحلة: رحيق الزهرة لى، صادر أبو الذهب كل الزهور.

قالت غادة الخضراء... هذه الوردة لحبيبى، أعدم أبو الذهب كل الورود.

وقال: أنا أكره الحب.

* * *

عاد صوت الطاحونة يغتال صمت الليل فى الخضراء.... إسمع جعجعة ولا أرى طحيناً هذه العبارة قالها أحد أبناء الخضراء، عندما رجع إلى بيته خالى الوفاض، ولم يستطع الحصول على الطحين... صارت تلك العبارة مثلاً... جعجعة الطاحونة تؤرق ليل أهالى الخضراء وهم لا يجدون الطحين... ارتفعت أسعار الطحين وأصبح يباع فى السوق السوداء. عانى أهالى الخضراء من عدم وجود الخبز، وقد ألحَّ طفل على أمه فى طلبه، سُمعت الأم تحكى لطفلها هذه القصة... «كانت حبَّة ثم صارت سنبلة، مجموع السنابل أصبح حقلاً. حصد الحقل، أبو الذهب، سجن الحقل فى مخزن الحبوب، مفتاح باب المخزن فى جيب أبى الذهب، اشتاقت نملة للحقل،

تسللت من ثقب باب مخزن القمح، سحبت حبَّة وخرجت... ثم عادت وسحبت حبَّة ثانية... وثالثة ورابعة... وخامسة وو.... ظلت تسحب حتى زرعت النملة حبَّات القمح، كبرت الحبَّات وصارت سنابل، حصدت النملة السنابل ثم طحنتها، عجنت النملة الطحين، صنعت منه خبزاً شهياً، حملت الخبز إلى أولادها... قالت لابنها الصغير: هذا لك، أكل ابنها حتى شبع ... ونام نام شبع ونام».

سئل أبو الذهب مرَّة: لماذا لا تزرع الطماطم فأجاب: الطماطم سلاح استعمله أطفال الخضراء ضدى، ضربونى به وشعرت وكأن دمي يسيل من سائل الطماطم الأحمر.. سأجعل أهالى الخضراء يشتهون

الطماطم ويتذكرون دائماً تلك الإهانة التى وجَّهوها إليَّ.

عامٌ يشح فيه القمح، وآخر يشح فيه الشعير، وثالث تشح فيه الثمار والخضار والطماطم ممنوعة، إنها من المحرمات... وأسعار المنتجات الزراعية فى ارتفاع مستمر، حتى أن أهالى الخضراء بدأوا يصنّفون السنوات من خلال الأزمات التى مرت بهم، فقد سمَّوا إحدى السنوات عام التمور وسموا سنة ثانية عام الشعير. وهذا العام أطلقوا عليه اسم عام «القلَّة» بسبب قلة الغلال على اختلاف أنواعها.

فى عام التمور احترقت معظم أشجار النخيل فى الخضراء. بعض أهالى الخضراء اتهموا أبا الذهب بإحراق بساتين

النخيل وقالوا بأنه كان يختزن كمية كبيرة من التمور فى مستودعاته، وأراد رفع أسعارها فأحرق النخيل وفى عام القمح رفع الأسعار إلى حد لا يطاق، بحجة زيادة أجور العمَّال وتكاليف صيانة آلات الحصاد. . . وهذا هو عام القلَّة. . .

* * *

ترك أبو الذهب كل الأراضى بوراً، لم يحرثها ولم يزرعها وعندما سأله مرتزق عن سر ذلك، قال أبوالذهب: لِمَ الحرثُ والزرع. هناك فائض من الغلال بقى من موسم العام الماضى، لست بحاجة إلى المزيد من الغلال، فلو كثرت الغلال لتدنت أسعارها، أما إذا كانت الغلال قليلة فإننى أتذرع بذلك وأرفع أسعارها، وفى جيمع الحالات، سأحصل على الربح

نفسه، وأوفر أجرة العاملين من دون أن أبذل جهد. . . وأضاف أبو الذهب: ما يهمنى هو الربح وسواء لـدىَّ إن كان الموسم خصباً أو قاحلاً، فى الحالتين سيدفع أهالى الخضراء الثمن.

أطرق مرتزق قليلاً ثم رفع رأسه وقال بصـوت منخفض: الآن عـرفت السـر والحكمة من إحراق بساتين النخيل.

ترك أبو الذهب الأراضى بوراً، خبر تناقله أهالى الخضراء بصمت وحذر. . . لما يخطِّط من وراء ذلك؟ سؤال كان على كل شفاه من فى الخضراء؟!!

سأتدبر أمرى هذا العام، عبارة قالها كل واحد من أبناء الخضراء لنفسه.

أقبـل الـربيـع واكتـظت الحقـول بـالأعشاب، كـان فرح الـرعاة كبيـراً،

سمح لكم بالرعى فى هذه الأرض، ثم أشار إلى أبى الذهب وقال: هذا صاحب الأرض وله الحق فى كل ما عليها، سواء كان حيواناً أو خضاراً أو أشجاراً أو حشائش، وإن شئتم الرعى فعليكم أن تدفعوا ثمن الحشائش. لا يوجد شىء من دون ثمن.

ضحك أحد الرعاة وكان معروفاً بالسخرية وقال: حسناً ما تقول، كل شىء له ثمن سنطالبك بثمن روث القطعان وسمادها خلال عشرات السنين، أو أن نتقايض واحدة... بواحدة.

جواب الراعى أحدث صدمة لأبى الذهب فصرخ بأعلى صوته: أنت قليل الأدب. رفع الراعى عصاه وهزها... لكن صديقه أمسكه من يده، وتوجَّه إلى أبى الذهب قائلاً: إنك تريد ثمن الأعشاب، لا بأس فمتى ستطالب بثمن

الهواء الذى يستنشقه الناس، متى ستمنع الطيور من التحليق فوق أرضك، نعرف أن لقبك أبو الذهب فمنذ متى أصبح لقبك «أبو حشيش».

أحدثت الكلمة الأخيرة عاصفة من الضحك بين الرعاة فثارت ثائرة أبى الذهب وصرخ بأعلى صوته: أخرجوا وقطعانكم من هنا، عليكم أن تحترموا القوانين الأرض وما عليها ملك لى... الحجارة... التراب الحشائش... كل شىء لى..

أجاب أحد الرعاة: أى قوانين هذه التى تتحدث عنها، قانوننا نحن هو السيد. قانون الطبيعة قانوننا: الناس شركاء فى ثلاث الماء والهواء والمرعى... والأرض ليست ملكاً لأحد، إنها باقية ونحن زائلون، أعرافنا أهم من قوانينك...

عدَّل أبو الذهب وضع بندقيته بإشارة تنم عن التحذير والاستعداد وزمَّ شفتيه وفغر فمه وكشر عن أسنان بدت وكأنها أسنان ذئب جائع وصرخ من أعماقه: ستخرجون أمواتاً إن لم تخرجوا أحياءً . . .

كانت كلاب الرعاة قد عادت من مطاردة ذئب حاول الاعتداء على القطعان، وعندما رأى أحدها صورة الذئب على وجه أبى الذهب، وما ينم بحركاته عن عداء لصاحبه اهتدى الكلب بغريزته إلى الذئب فى نفس أبى الذهب، فهجم عليه وبدأ ينهشه فى أنحاء جسمه. . . انطلق صوت عيار نارى، فقد أطلق مرتزق النار على الكلب وأرداه.

عندما رأى صاحب الكلب ذلك، رفع عصاه وهوى بها على رأس مرتزق، خرَّ

مرتزق إلى الأرض جانب جثة الكلب و. . . ارتبك أبو الذهب ووجه بندقيته نحو الراعى، لكنه قبل أن يضغط على الزناد، تلقى حجراً أفقده توازنه، أطلق النـار أصاب أحد الرعاة بيده. . . حجرٌ آخر أصابه، فقد توازنه، وبدأت العصى ترتفع وتهوى. . . .

على حمارين أعرجين، كان أبو الذهب ومرتزق قد حملا إلى بيتهما، كسرت يدُ مـرتزق، وكسـرت رجلا أبـو الذهب، وعنـدما سئـل الرعـاة عن سبب جراح الرجلين أجابو: أطلقوا النار على أحدنا وقمنا بالدفاع عن أنفسنا. . . .

* * *

ازدادت نقمة أبى الذهب على أبناء الخضراء، فتمادى فى جوره وطغيانه، زاد

أسعار الحبوب أضعافاً، وانقص كمية الحبوب المعروضة للبيع كثيراً، ولحد لا يكفى جميع السكان، مما زاد الطلب على المواد الغذائية، فارتفعت الأسعار، وزادت أرباح أبى الذهب القابع فى بيته لا يستطيع الخروج إلاَّ محمولاً على حمَّالة كأنها «النعش».

ذات يوم دخل مرتزق على سيده وقد بدا عليه الحزن، سأله أبو الذهب عن سبب حزنه فأجاب مرتزق: بدأت الحشرات والفئران تفتك بالحبوب، قسمٌ كبير أصيب بالتلف والفساد.

تحسس أبو الذهب إحدى رجليه، بعدما صدرت عنه أنَّة وقال: هذا الأمر بسيط ولا يبعث على الحزن، بالعكس هذا الخبر بعث السرور فى نفسى، بكل

بساطة يا مرتزق: من الغد تبدأ بعرض الحبوب الفاسدة للبيع، وسيشتريها الناس مرغمين... ومن أراد الاعتراض على ذلك، فليبحث عن الحبوب فى بيوت النمل... ثم أمسك مفتاح مخزن الحبوب وأطلق ضحكة هستيرية وصرخ بأعلى صوته: هنا.... هنا توجد أرواح أبناء الخضراء... أرواحهم فى مخزن الحبوب.

الحبوب فاسدة... التمور فاسدة خبر انتشر فى الخضراء... هذا ما لدينا، قال مرتزق هذا لكل من اعترض على نوعية الحبوب والتمور...

ماذا أفعل؟ سؤال وجهه كل واحد فى الخضراء إلى نفسه منفرداً، لم يوجهه لأبناء المحلة، أو لأصدقاء... بقى السؤال مفرداً والجواب كذلك... وأخيراً

أذعن معظم الناس لإرادة أبى الذهب. . . واشتروا تلك الحبوب.

أعجب لمن ينام ليلته جائعاً ولا يخرج شاهراً سيفه للناس.

أبو الذهب = أبو الاحتكار = الشيطان = الغول.

أبو الذهب يطعم الناس فضلات الحشرات.

أبو الذهب سرق الأرض ليتركها بوراً.

هذه الشعارات وغيرها، كتبت على جدران منازل الخضراء، وعندما وصلت أخبارها مسامع أبى الذهب قال لمرتزق: سأحرق مخزن الحبوب.

إن فكر أهالى الخضراء بالوصول إليه. . . سأجعلهم يموتون جوعاً هذه

المرة. أهالى الخضراء، أعجبوا كثيراً بما كتب، هذا صحيح، عبارة ردَّدها الجميع.

قالت إحدى النساء لجارتها: ماذا يقول زوجك عن الحالة التى وصلنا إليها جميعاً، أجابت الجارة: يقول إن الحالة لا تطاق، وعلينا أن نقوم بعمل ننقذ به كرامتنا... أبو الذهب يستهين بكرامتنا... إننى أشعر بالإهانة كل يوم... ردَّت المرأة قائلة: وزوجى يقول الكلام نفسه، لكنهم جميع الرجال لم يفعلوا شيئاً حتى الآن... وفى المساء وصل محتوى الكلام إلى جميع الرجال فى الخضراء.

* * *

فى ساحة الخضراء ألقى أحد الرجال كيساً من القمح نثره على الأرض، وصاح

تعالوا يا أهل الخضراء وانظروا الحبوب التى تـأكلونها مـع أطفالكم، أم أنكم تعـرفـون أنهـا فـاســدة لا تليق حتى بالحيوانات، ومع ذلك بقيتم صامتين لا تنـطقون بـأى كلمة احتجـاج، تعـالـوا وانظروا. . . إنها مليئة بالعفن وكل أنواع الحشـرات. الفئران والجـرذان والنمـل تعبث فى مخزن الحبوب ونحن نشتهى الخبز الأبيض النظيف، الـرعاة أخـذوا حقـوقهم بعصيهم والنمـل يـأخذ حقّـه بصغره، والفئران أخذت نصيبها وتعبث بنصيبنا فساداً، ونحن أبناء الخضراء متى سنأخذ حقوقنا ونسترد كرامتنا وحقنا، هل سننتظر الساعة التى نرى فيها أطفالنـا يموتون جوعاً ومرضاً إننا نقف أمام مخزن الحبوب كالمتسولين رغم أننا ندفع مالنـا وعرق جباهنا، ثمن ما نأخذ، لكن أبا

الـذهب يصر على أن يـأخذ كـرامتنـا ومالنا. . . وتابع الرجل حـديثه بلهجـة واثقة:

حتماً سيبقى سيف التجويع والإذلال مسلطاً فوق رقابنا، نتحدث عمَّـا فعله أباؤ نا وأجدادنا، ولـم يسأل أحد منا نفسه: ماذا فعلت وماذا أفعل؟ نمنا على حرير انتصارات أبائنا وأجدادنا فى الماضى، لقد كان لنا ماضٍ مجيد، ولكن حاضرنا سيىء، وربمـا كان مسقبلنـا أسوأ من حاضرنا إن بقينا خانعين خائفين. . . ثم وقف رجل آخر وقال: الرجل على حق فيما يقول، كل منا يعرف الحقائق التى قالها، لكننا نخجل من قولها، نرى عيباً أن نعلن أننا محتاجون، أو جياع، نخجل (نستحى، من جيراننا، وجيراننا يستحون منا، والجوع وأبو الذهب لا يخجلان. .)

ثم تكلم رجل ثالث وأضاف: كثيراً ما فكرت بإعلان غضبى لكن الخجل كان عائقى... عاد الرجل الأول إلى الحديث وقال: لماذا لا يخجل أبو الذهب عندما يطعمنا الحبوب الفاسدة، كيف لا يخجل الظالم من ظلمه ويخجل صاحب الحق بالمطالبة بحقِّه؟؟!! هيَّا جميعاً إلى بيت أبى الذهب...

سار أهالى الخضراء إلى بيت أبى الذهب...

أخرج أيها السارق، أخرج أيها المرتزق، أخرج يا أبا الذهب، يا أبا اللؤم.

الناس يزحفون نحو القصر، وفى حالة هياج وغضب، السماء تمطر غضباً يا سيدى.. كان مرتزق يتحدث

بخـوف... وها هـو صوت الجمـاهير يقترب... أبو الذهب يسمع الشتـائم الموجهة إليه... قال لمرتزق:

هذه المرَّة يبدو الأمر صعباً، لا يحتمل الكثير من الأخذ والرد، الناس جياع يا مرتزق والجوع كافر.

* مـاذا نفعل إذن يـا سيدى؟ سـأل مرتزق....

أجاب أبو الذهب: عندما يصل الناس إلى باحة القصر، قل لهم إن أبا الذهب مستعـدٌ لتلبية جميـع مـطالبكم. يجب استيعـاب الناس فهم فى حـالة هيـاج وغضب... غضب الجميع هو ما أخاف منه... وكان الذى خفت أن يكون....

أخرج يا أبا الذهب... أخرج أيها المرتزق... أصوات انطلقت من مسافة

قريبة. . . كان بعض زبانية أبى الذهب يحاولون منع الناس من الـدخول إلى القصر. . . وعندما رأى مرتزق ذلك صاح بأتباعـه: دعوا النـاس يدخلون افتحـوا الأبواب للناس يا أوغاد. . . ادخلوا يا أبناء الخضـراء. . . قصر أبى الـذهب لكم جميعاً. . .

قال أحد أبناء الخضراء: هـل جنَّ مرتزق؟ وقال آخر: يا للعجب، العسل يخرج من فم الثعبان.

صرخ مرتزق بأعلى صوته: أخوانى أبنـاء الخضراء، إن سيدى أبا الـذهب مستعد لتلبية مطالبكم مهما كانت. . . قاطعه رجل وقال: نريد تخفيض الأسعار وحبوباً غير فاسدة، ثم تكلم رجلٌ آخر وقال: نريد الإشراف على مخزن الحبوب

لن تبقى أرواحنــا بين أيــديكـم أنت وسيدك. . . فمرة تقولون: القمح مفقود ثم تقـولون، التمـور مفقودة، رغم أن الحبوب والتمور موجودة بوفرة.

وقف رجلٌ ولوَّح بيده فى وجه مرتزق وصرخ: اسمعوا يـا أخوانى، المسـألة ليست مخـزن الحبوب، المسـألـة فى الأساس، قد يعطيكم أبو الذهب المخزن ومـا فيه من الحبـوب، ويحتفظ لنفسه بالمخزن الكبير الذى لا ينضب، أعنى الأرض مصدر الحياة. . . فما دام أبو الذهب يسيطر على الأرض، فلن نكون أحراراً. . . الأرض لمن يزرعها. . .

دهش مرتزق من كلام هذا الرجل، لكنه تجاهله وقال بلهجة ماكرة:

* قلت لكم . . . أبو الذهب مستعد

لتلبية جميع مطالبكم، يؤجركم الأرض التى اشتراها منكم، يبيعكم الأرض إن شئتم . . .

قال الناس بصوت واحد: الأرض لنا أساساً، والأرض لمن يزرعها الأرض لا تباع ولا تشترى. . . إنها باقية وستبقى مكانها. . .

انطلق صوت أبى الذهب: قل لهم يا مرتزق إننى موافق، موافق على كل ما يطلبونه، قل لهم هذا واذهب ونفذ ما اتفقنا عليه سابقاً. . . ثم التفت أبو الذهب إلى الخدم وقال: احملونى إلى الشرفة.

على شرفة القصر جلس أبو الذهب وقد طفح وجهه بالبشر والفرح ثم بدأ كلامه: أخوانى وأحبائى أبناء الخضراء، بإمكانكم التصرف بكل ما أملك، الأرض والطاحونة

ومخزن الحبوب، أنا منكم وإليكم، بل هى منا وإلينا، الأرض منا ومخزن الحبوب والطاحونة.

تابع أبو الذهب بعدما رسم ابتسامة عريضة: كما تشاؤ ون هى منكم وستعود إليكم، لكننى أريد أن أوضح لكم شيئاً، لكى لا أكون متهماً بما حصل خلال قعودى فى البيت، بسبب الكسور التى أصبت بها، سمع أحدهم يقول: لا ردَّك الله....

وتابع: أخوانى أبناء الخضراء، هذا اليوم بالذات عرفت ما فعله مرتزق أخبرنى مساعدى مرشد عن كل الأفعال التى قام بها مرتزق، عن رفع أسعار المواد الغذائية والحبوب الفاسدة، هذه الأمور جميعها حصلت من دون علمى. مـرتزق هـو

المسؤول عن كل هذه الأعمال السيئة، في كل مرَّة كان مرتزق المسؤول وكنت أنا المتهم، سامحوني يا أهالي الخضراء، يا أخوتي هذا البيت لكم إذا شئتم أيضاً. . . أين أنت يا مرتزق، أنت مطرود من خدمتي، تعال واعترف أين مرتزق يا مرشد، قال أبو الذهب الكلمات الأخيرة بحركات تمثيلية بارعة.

أجاب مرشد: اختفى مرتزق يا سيدي. . .

صاح أبو الذهب: اتبعوا مرتزق، أدركوه قبل فوات الأوان ذهب لإحراق مخزن الحبوب، إنه شيطان رجيم.

أحد أبناء الخضراء وكان يدعى محمود قال بصوت عالٍ: لا أكاد أصدِّق ما أسمع لا يغرنكم ملمس أبي الذهب الناعم.

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها
عند التقلب فى أنيابها العطب

* * *

كان الحريق فى بدايته، سيطر الناس على الحريق، أمسكوا بمرتزق... قال مرتزق: صدّقونى يا ناس، أنا عبد مأجور أنفذ أوامر سيدى...

لن يصدقك أحد، لقد ضبطت بالجرم المشهود...

منذ ذلك اليوم، اختفى مرتزق من الخضراء، سافر إلى بلاد بعيدة، قتل فى ظروف غامضة لا أحد يعرف.

معظم أهالى الخضراء وضعوا اللائمة على مرتزق، وقالوا: سبحان الله لقد تغيَّر أبو الذهب... عاد محمود وردد بيت الشعر:

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها
عند التقلب فى أنيابها العطبُ

أما أبو الذهب فقد كان يقول فى سرّه:

إن كنت تحسب يا محمود أن يدى
قصيرة عنك فالأيام تنقلبُ

إن الأفاعى وإن لانت ملامسها
عند التقلب فى أنيابها العطب

ذات يوم سأل مرشد أبا الذهب: لماذا أنكرت معرفتك بما كان يجرى فى الخضراء، وعدلت عن رأيك بإحراق مخزن الحبوب يا سيدى...

ضحك أبو الذهب بخبث وأجاب: لو احترق مخزن الحبوب لكنا احترقنا جميعاً بثورة الغضب، أحرقت مرتزق وبقيت أنا

وأنت ليأخذ أهالى الخضراء ما يريدون، رحلتى معهم طويلة، حسابى معهم لم ينته بعد، خسرت هذه الجولة لكننى لم أهزم إلى الأبد. . . .

Bibliotheca Alexandrina
0385459

500 درهم ليبي أو ما يعادله

المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر
هاتف : 40705 - 45565 - 45594
مبرق : GREEN BOOK 20668 - 20032
ص . ب : 4491 ـ طرابلس ـ الجماهيرية